عوامل الانسجام والثّراء في أبنية اللغة العربية

د. حمزة بوجمل

تتميّز الأبنية العربية ببعض الخصائص التي تقلّ أو تندر في اللغات الأخرى كاعتدال أصولها وسهولة إنتاجها، وانسجام أصواتها؛ لتباعد المخارج واتّساع المدرج. وتقابل أصواتها في كلّ مخرج، وشيوع الأصوات السّهلة في نسج كلمها، والتّتابعات الخفيفة والمنسجمة، وغلبة الأبنية المعتدلة. كما تتميّز بوجوه تصرّفها، وصيغها واشتقاقاتها، وتنوّع أوضاعها، وتعدّد أقيستها. وهذا ما أدّى بها إلى الوصول للعالمية، وتحمّل أعباء نقل التّراث العربيّ، وحفظ كتاب الله المعجز، ونشر رسالته الخالدة.

وقد تحدّث العلماء والباحثون عن هذه الخصائص قديما وحديثاً، لكن قلّ من ربطها بعواملها، وأسباب تميّز العربية عن غيرها من اللغات، وأعتقد أنّ ربط العربية بظروف نشأتها وعوامل تطورها وتميّزها يزيل كثيراً من التساؤلات والشبهات المطروحة من الباحثين المستشرقين والعرب، نحو اللغة الفنية المشتركة، ومصادر الشعر الجاهلي، وقصر المدّة التي تؤرخ للغة العربية قبل نزول القرآن، واللغة التي استُنبطت منها قوانينُ النحو العربي، وغير ذلك .....

كما أنّ بعض الدارسين قد شكّك في خصائص اللغة العربية كظواهر الاقتصاد اللغوي، ووظائف الإعراب ونظام الجملة العربية، بدافع الموضوعية وعدم المفاضلة بين اللغات، وأنّها مجرّد عادات نطقية واختيارات اجتماعية، وأنّ اللغة مهما كان مستواها أو محتواها لا تعدم وسيلة لأمن اللبس والتعبير عن جميع حاجات الإنسان الفكرية والنفسية والتواصلية.

غير أننا نرى أنّ العربية لم تصل إلى هذا الانسجام والثّراء لولا تفرّدها بعوامل وظروف لم تتوفّر لغيرها من اللغات، نحو عدم الاختلاط باللغات الأخرى، والمشافهة التي بقيت ملاصقة لها زمناً طويلاً، منذ نشأتها إلى قبيل نزول القرآن، وتطورها في ظلّ مدٍّ وجذبٍ ساهما في استقرارها وعدم تشظّيها في شكل لغات جديدة؛ مدّ القبائل التي تفرّقت بها في شبه الجزيرة، وجذب المناسبات الدينية والأسواق الأدبية.

هذه العوامل وأُخَر جعلتها تتميّز بجملة من الخصائص في جميع المستويات اللغوية والتداولية، وأدت إلى انسجام أبنيتها وإثرائها وتطويرها وصقلها وتهذيبها وتطويعها، والوصول بها إلى أرقى صورة، متّسمة بالتوازن والموسيقية.

ونعمل في هذه الصفحات على الإشارة إلى هذه العوامل من وجهة نظر تاريخية، وبيان أهميتها، وتوجيه الأنظار إليها ليعاد بحثُها واستكناه غوامضها ومكنوناتها، وتصحيح بعض المفاهيم المتعلقة بها.

إنّ ما يسترعي الانتباه كما أسلفنا هو استفادة اللغة العربية من بعض العوامل التي حُرم منها غيرُها من اللغات، ما جعلها تبلغ أقصى درجات الكمال والتّمام مع الخفّة والانسجام، وتستعمل أنواعاً شتّى وطرقاً كثيرة من التخفيف وتوليد الأبنية لتحقيق الغايات والمقاصد، ومنها:

أولا- المشافهة:

المشافهة صفةٌ قُدمى -مقابلة للكتابة- تخصّ اللغة التي يُتواصل بها شفهياً (صوتيا) داخل المجتمع الإنساني قبل دخول الكتابة لتدوينها والقيام بديلاً عنها في التواصل. وكما هو معروف فإنّ اللغات لم تعرف الكتابة إلّا في وقت متأخّر من حياتها، ولم يحدث ذلك إلّا في مجموعات بشرية محدودة فحسب، فأقدم مخطوط يرجع تاريخه إلى ٠٦ آلاف سنة فقط بالرّغم من تاريخ البشرية الضارب في القدم(١). كما أنّ معظم اللغات لم تعرف الكتابة على الإطلاق، وليس هناك من بين آلاف اللغات المتكلّم بها اليوم سوى ما يقرب من ٧٨ لغة فقط لها أدب مكتوب... وليس ثمة طريقة إلى الآن لإحصاء عدد اللغات التي اختفت أو تحوّلت إلى لغات أخرى قبل أن تعرف الكتابة(٢).

واللغة العربية من بين اللغات التي اتّسمت بهذه الصفة وبقيت ملاصقة لها زمناً طويلاً، ما جعل الأفواه والآذان تتحكّم فيها "وتسير بها سراعاً في اتّجاه موسيقيّ ملطّف، وتصبغ أصواتها بألوان كثيرة واسعة المدى من الاختصار والإيجاز"(٣)،

عكس العبرية مثلاً التي قد عرفت الكتابة في القرن الأول الميلادي(٤).

إذن فالمشافهة عملت على تطوير العربية وصقلها وتهذيبها وتطويعها، إذ جعلتها تصل إلى أرقى صورة وتتخلّص من كلّ عيب، مع الأداء اليومي المعتاد، والتباري في المنازعات والمفاخرات والمناظرات والاحتفالات(٥). وهذا لم يحدث للغات التي عرفت الكتابة في زمن مبكّر من حياتها؛ لأنّ الكتابة تحبس الكلمات الشّفاهية حبساً مؤبداً في حقل مرئيّ(٦).

لقد كان للمشافهة والسّماع دورٌ كبيرٌ في تهذيب اللغة العربية وتخليصها في أصواتها وكلماتها وتراكيبها من كلّ ما يشوبها من المركّبات الصّوتية العسيرة نطقاً وغير المستساغة سمعاً.

ومن بين المزايا التي توفّرت للغة العربية بسبب الشّفاهية:

أ/ الموسيقية:

اللغة العربية لغة موسيقية؛ لأنّها تقوم على نظام الصيغ والوزن والطبيعة التكرارية للعبارات، فيكون لها بذلك علاقة وطيدة مع عملية التنفس، ويساعدها من الناحية الفسيولوجية على التذكّر(٧)، ولأنّ أهلها يهتمّون بصناعة الكلام وتجويده، ويختارون من السّلسلة الكلامية ما سَلم من جنف التأليف، وخفَّ على اللسان، وقبله الفهمُ والتذَّ به السّمع(٨)، ويظهر هذا جلياً فيما أُثر عن أسواق العرب، وما اشترطه البلاغيون في فصاحة الكلمة، فضلاً عن أنّ العرب لم ترتبط بالصناعات الأخرى ارتباطها باللغة التي تفنّنت في تأديتها باقتصاد في الجهد الذّهنيّ والعضليّ، ليسهل الترنّمُ بها ويسهل حفظُها واسترجاعها متى دعت الحاجة، وذلك لأنّ الكلام المنسجم المنتظم أقلّ عبئاً على الذاكرة السّمعية، وأيسر في إعادته وترديده. وممّا أُثر عن القدماء في نقد الشعر قول أحدهم: "وعيارُ التحام أجزاءِ النّظم والتئامه على تَخيُّر من لذيذ الوزن، الطبعُ واللسانُ، فما لم يتعثّر الطّبعُ بأبيّه وعقوده، ولم يتحبّس اللسانُ في فصوله ووصوله، بل استمرّا فيه واستسهلاه بلا ملال ولا كلال، فذلك يوشك أن تكونَ القصيدةُ منه كالبيت، والبيتُ كالكلمة تشابُهاً لأجزائه وتقارناً"(٩)، وألّا يكون كما قيل فيه:

وشعرٍ كبعر الكبش فرَّق بينَه
لسانُ دَعيٍّ في القريض دخيلِ

وكما قال خلف:

وبعضُ قريضِ الشّعر أولادُ عَلَّة
يَكُدُّ لسانَ النّاطقِ المتحفِّظ

وكلّ هذه العوامل أدّت إلى تكوين ملكات لسانية إنتاجاً ونقداً، وعملت على صقل وتشذيب هذه اللغة لتكون أهلاً لاستيعاب القرآن الكريم، بآياته ومقاصده وإعجازه.

وقد سجّل أحد الباحثين أنّ "الكلمة العربية تشكّل وحدة صوتية جيّدة وأنّها موزونة أينما وردت في الشّعر والنّثر، وأنّ جلّ اللغات السّامية قد خلت من هذه الموسيقية، حتى إنّ المستشرق الألماني "شاده" لم يجد قصيدة عبرية واحدة فيها البحر أو الوزن الموحّد من أوّلها إلى آخرها. وإنّما وجدت لمحات من أوزان مختلفة"(١٠)، والشعر يمتاز بانسجام المقاطع وتواليها، وأنّه يخضع لنظام خاصّ من التناظر والتناسب، يسمح بترديده واستحضاره دون إرهاق للذاكرة(١١)، وهذا ما يبرّر كثرته إذا ما قيس بما نُقل من النصوص النثرية، فقد سُئل عبد الصّمد بن الفضل الرّقاشيّ، لمَ توثر السجع على المنثور وتلزم نفسك القوافي وإقامة الوزن؟ فقال: "إنّ كلامي لو كنت لا آمل فيه إلا سماع الشاهد لقلّ خلافي عليك، ولكنّي أريد الغائب والحاضر، والرّاهن والغابر، فالحفظ إليه أسرع، والآذان لسماعه أنشط، وهو أحقّ بالتقييد وبقلّة التّفلّت، وما تكلّمت به العرب من جيّد المنثور أكثر ممّا تكلّمت به من جيّد الموزون، فلم يُحفظ من المنثور عشرُه ولا ضاع من الموزون عشرُه"(١٢).

فهذه آثار الشفاهية على اللغة العربية التي ظهرت في اتّزان كلماتها وانسجام مقاطعها، وتناغم تراكيبها، وقد عمّت الموسيقية جميع الكلام العربي، وتهيأ فيه مقدارٌ من الوزن ولو لم يقصد صاحبُه إلى الشعر. فلو تأمّلت "أحاديثَ النّاس وخطبَهم ورسائلَهم لوجدت فيها مثل (مستفعلن فاعلاتن) كثيراً، وليس أحدٌ في الأرض يجعل ذلك المقدار شعراً. ولو أنّ رجلاً من الباعة صاح: من يشتري باذنجان؟ لقد كان تكلّم بكلام في وزن: مستفعلن مفعولان"(١٣).

وقد تجلّت الموسيقية أيضاً في القرآن الكريم الذي تتوالى فيه المقاطع داخل الآيات في تناسق موسيقيٍّ جذّاب، ممّا أدّى ببعض الشّعراء إلى توظيف آيات كاملة في شكل أبيات شعرية(١٤) نحو قول أبي نواس:

لَنْ تَنالوا البرّ حتّى
تُنْفقوا ممّا تُحبّون

وقول الآخر:

تَبارَك مَنْ تَوَفّاكُمْ بِلَيْلٍ

ويَعْلَمُ ما جَرَحْتُمْ بالنَّهار

ويرى أحدُ الدّارسين أنّ هؤلاء الشّعراء وجدوا الاقتباس من القرآن سهلاً ميسّراً، "لأنّ الكثرة الغالبة من آيات القرآن الكريم تصلح من ناحية توالي المقاطع أن تُنظم شعراً" (١٥).

وما كان للعربية أن تبلغ هذا الشأن لولا المشافهة والسّماع اللذان خلّصاها من كلّ ما يشوبها من المركّبات الصّوتية العسيرة نطقاً والثّقيلة سماعاً، ممّا سبغ على الكلام العربي انسجاماً واتّزاناً، وعلى الكلمة العربية سلاسة وانسياباً ومسحةً موسيقيةً امتازت بها عن سائر أخواتها الساميات.

ب/ التوازن:

اللغة الشّفاهية تمتاز بالتّوازن مقارنةً بالكتابية لأنّها تعيش في الحاضر متخلصة من الذكريات التي لم تعد لها صلةٌ بها، في حين أنّ الكتابية تبقى مرتبطة مع الماضي عن طريق القواميس التي تحدّد المعاني المختلفة للكلمة وتحدّد تواريخها(١٦).

ج/ نشاط الذاكرة:

الشفاهية تعمل على تنشيط الذاكرة وتنمية مهارة الحفظ في حين أن الكتابة تخزّن المعرفة خارج الذّهن وتحرّره للتحوّل إلى أفكار جديدة، إذ لا يأخذ على عاتقه مهمّة الحفظ(١٧)، فقوّة الذّاكرة وسعة الحافظة تؤدّيان إلى رسوخ الملكة، وبه يستطيع المتكلّم أن يرتجل باستحداث ألفاظ جديدة أو تخليص بعض الألفاظ من التعقيدات النّطقية أو الوزنية.

لذا فعندما نُجري مقارنات بين اللغات نراعي خصوصية كلّ لغة، فمثلاً عندما ساوى تمام حسان بين اللغة العربية والإنجليزية بأنّها لغة متمدينة وعالمية وأنّها لا تعدم وسيلة لدفع التقاء الساكنين والنّزوع إلى الاقتصاد في الجهد العضليّ؛ عليه أن ينظر إلى تاريخ ألفاظها على سبيل المثال، فإنّ قسماً كبيراً من ألفاظها مأخوذ من لغات أخرى وخُضِّع لنظامها، وهل هذا التّخضيع يُزيل كلَّ التعقيدات النُّطقية في هذه المدّة من تاريخ الإنجليزية العالمية.

د/ الاقتصاد:

ساعدت الشفاهية على بروز ظاهرة مهمّة في اللغة تسمّى الاقتصاد، وهو "ميل اللغة إلى توفير الجهد عن طريق الاختصار أو الحذف أو التعديل في مخارج الحروف"(١٨)، أو هو التعبير "بالقليل المتناهي عن الكثير غيرِ المتناهي"(١٩)؛ ليبلغ المتكلمُ بذلك أكبرَ عدد ممكن من الفوائد، بأقلّ كمّية من الجهود الذهنية والعلاجية لآلة الخطاب. وتسعى اللغة بذلك إلى عدم هدر الجهود البشرية وتعبّر "باقتضاب واختصار عمّا يجول في خاطر المنتفعين منها، وقد يسيطر على هؤلاء المنتفعين المبدأ المعروف: بذل أدنى جهد والحصول على أكبر منفعة. ويسمّى هذا السلوكُ الاقتصادَ الألسنيّ"(٢٠). ويتحدّد هذا الاقتصاد في ظلّ مبدأين متضادّين وهما أولاً ما يقتضيه الخطاب من البيان والوضوح، وثانياً ما تقتضيه طبيعة كلّ كائن حي من الاكتفاء بالقليل من الجهود لتحقيق غرضه.

إنّ الاقتصاد يتحقق بدايةً من خلال نظام اللغة في ذاتها؛ لأنّه خاصّية لغوية لا تصلح اللغة بغيره، وبه كانت أداةَ التواصل الأنجع القابلة للاستعمال العام، والقادرة بجهد زهيد على إيصال معلومات كثيرة (٢١)، وذلك لتناهي ألفاظها وأنماطها التركيبية، في حين أنّ المعاني غير متناهية، ويبدو جلياً "سلوك اللغة سلوكاً اقتصادياً يوظف القليل من الوسائل للوصول إلى الكثير من الغايات"(٢٢)؛ لأنّ عدد الأفكار يتجاوز بالضرورة عدد العلامات، لذلك يجب أن يُصطلح على الدلالة بالعلامة الواحدة على أفكار عديدة"(٢٣).

كما تعمل الشفاهية إضافة إلى ما سبق على تحقّق الاقتصاد بالتخلّص من المجهود العضليّ والذّهنيّ في الاستعمال أثناء العملية التّواصلية، كتجنيبِ إثقال الذّاكرة بما هو غير مفيد وإقصاءِ الصّيغ والأبنية العليلة، والقضاءِ على التّفريعات الكثيرة والأنواع المختلفة للظاهرة الواحدة في داخل اللغة(٢٤)، والاختزال لبعض الأصوات أو الاقتضاب أو الإدماج أو التّخفيف، مع المحافظة على الأنماط والمعاني المقصودة(٢٥).

قد يؤدي هذا التخفّف في الاستعمال إلى لَبْس أو غموض، فيُلجأ حينئذ إلى القرائن المتضافرة في السّياق وعلى قرينة الحال، وهذا ما قال فيه ماريوباي: "هنا يأتي في العادة دور السّياق لينقذ السامعَ من الاضطراب، ويساعدَ على توصيل الرّسالة بصورة صحيحة ليمكن ترجمتها على الرّغم من صورتها الصّوتية المبهمة، والانحراف العارض على نطقها"(٢٦)

إنّ الاقتصاد لا يتمّ في اللغة على إطلاقه؛ لأنّ بعض التّغيّرات الصّوتية تخضع لعوامل أخرى، أهمّها الدّلالة كأمن اللبس والحمولة الدّلالية للفظ والمقام، كما جاء في شرح المفصّل بأنّ "الإدغام إنّما جيء به لضربٍ من التّخفيف فإذا

أدّى ذلك إلى فساد عُدِل عنه إلى الأصل، والأحكام الموضوعة للتّخفيف إذا أدّت إلى نقضِ أغراضٍ مقصودة تُركت"(٢٧)، هذا الكلام يؤكّد أولية المعنى على اللفظ في المراعاة ، فلا يُتصرَّف في اللفظ إلا بتمام المعنى، وأمن اللبس على المخاطب.

ومن أمن اللبس عدم إلحاق التّاء في الصّفات الخاصّة بالإناث مثل: حائض وطالق ومرضع وكاعب وناهد؛ لأنّ اختصاص هذه الصّفات بالمؤنث جعل اللبس مأموناً فتخفّفت اللغة من هذه التّاء(٢٨)، ومنه عدم إدغام المِثلين إذا أدّيا إلى اشتباه بناء ببناء، نحو سرر وطلل وجدد لأنّك لو أدغمت فقلت: طلّ وسرّ وجدّ لاشتبهت بالأفعال ولم يُعلم أأسماءٌ هي أم أفعالٌ؟(٢٩). وأمن اللبس عامل مساعد على الاقتصاد، وهذه طبيعة العربية التي ترخّصت في المستويات اللغوية المختلفة(٣٠)، وحتّى في التّغييرات السّياقية إذا توفّر الوضوحُ وأُمِن اللبس(٣١)، لهذا نجد المبرِّد يقول في سبب الإدغام: "ليُرفع اللسانُ عنهما رفعة واحدة؛ إذ كان ذلك أخفّ وكان غير ناقض معنى، ولا ملتبس بلفظ"(٣٢)، وقال لمّا أراد أن يعالج باب الحذف: "هذا باب ما يحذف استخفافاً؛ لأنّ اللبس فيه مأمون"(٣٣). ممّا سبق نلاحظ أنّ المتكلّم يتخلّص من بعض الجهود، دون أن يُلبس على المتلقّي، ومع المحافظة على ما يميّز الألفاظ عن بعضها البعض.

قد نجد في الكلام من المظاهر الصّوتية التي تُركت على ثقلها ولم يُنزع فيها إلى الاقتصاد، إمّا أمناً للّبس كما رأينا أو أنّ هذا الاقتصاد قد يؤدّي إلى ثقل جديد، فبقي الثّقل الأوّل على حاله، كعدم تسهيل الهمزة الأولى في بداية الكلام، وعدم الإدغام المؤدّي إلى التقاء الساكنين، لأنّ اللغة تسعى إلى الوضوح والفائدة فتحتاط دائماً وتوفّرُ أمن اللبس.

ثم إنَّ هناك جانباً مهارياً للّغة ينتج عن شيوع الاستخدام وتكراره لدى النّاطقين، حتى يتعوّدوا على الثّقيل (التّعقيدات النّطقية)، ويحكمون بخفّته، ويصبح من العادات النّطقية التي يصعب التّخلّص منها، باعتبارها عادةً عضلية عصبية، تجعل أبناء البيئة الواحدة يجرون أصواتهم المفردة والمركّبة في مجارٍ ثابتة بقدر ثبات العادات(٣٤)، وربما كان هذا الجانب المهاريّ للغة هو الملكة اللغوية التي قصدها ابن خلدون بقدرة الإنسان على التحكّم في اللغة والتصرّف فيها(٣٥)، وانظر إلى قول ابن يعيش وهو يبرّر خفّةَ الاسم لكثرته في الكلام والاستعمال: "ألا ترى أنّ العجميّ إذا تعاطى كلام العرب ثقل على لسانه لقلّة استعماله له، وكذلك العربيّ إذا تعاطى كلام العجم كان ثقيلاً عليه لقلّة استعماله له"(٣٦)، فنلاحظ أنّه جعل الإحساس بالخفّة أو الثّقل ناتجاً عن كثرة الاستعمال أو قلّته.

ويدعّم هذا نزول القرآن الكريم على سبعة أحرف لصعوبة تحوّل القبائل العربية عن بعض عاداتها النّطقية فضلاً عن غير العرب، فجاءت الأحرف السبعة مستوعبةً للمظاهر اللهجية، حتى يتعوّد المسلمون على هذا النّسق الاستعماليّ والأسلوبيّ المعجز(٣٧)، لأنّ الإلزام بالقراءة على حرف واحد في أوّل العهد فيه مشقّة وحرج، فجاءت الأحرف السّبعة تسهيلاً وتيسيراً وتوسعةً على الأمّة، فقرأ الهذليّ (عتى حين) يريد: حتى حين، وقرأ الأسدي (تِعلمون) بكسر أوله، والتّميمي يهمز والقرشي يسهّل(٣٨)، واستمرّ هذا التّيسير حتّى جمع عثمان رضي الله عنه القرآن على ما جاء في العرضة الأخيرة(٣٩).

وقد جاء في معاني الأحرف السّبعة شيءٌ كثيرٌ في الاختلافات اللهجية التي تخصُّ النّطق الشّكليّ للكلمة، كالفتح والإمالة، والتّرقيق والتّفخيم، والإظهار والإدغام، ونحو ذلك.

إذن فالتخفيف في القرآن الكريم أوّل الأمر كان بالتّوسعة، ثم بعد الشّيوع والتّأقلم مع العادات الجديدة أصبح بالدّربة والممارسة، مع بقاء بعض العادات المتجذّرة التي يصعب على الإنسان التخلّص منها، فحوتها القراءات القرآنية التي بقيت بعد الجمع بما أقرّته العرضة الأخيرة، وبما يحتمله رسم المصاحف العثمانية من الأحرف السبعة(٤٠).

وقريب من هذا ما أورده الجاحظ في البيان والتبيين، وهو أنّ الإنسان قد حباه الله بالقدرة على التّقليد وأنّه يستطيع التّكلّم بجميع مخارج الأمم، حيث قال: "وحين فضّله على جميع الحيوان بالمنطق والعقل والاستطاعة، فبطول استعمال التكلّف ذلّت لذلك جوارحُه ومتى ترك شمائلَه ولسانَه على سجيتها كان مقصوراً بعادة المنشأ على الشّكل الذي لم يزل فيه"(٤١).

إن استعمال التكلّف يقضى على بعض عيوب النّطق كما ذكر الجاحظ أيضاً: "وكانت لثغة محمد بن شبيب المتكلّم بالغين، فإذا حمل على نفسه وقوّم لسانه أخرج الرّاء على الصحّة فتأتّى له ذلك وكان يدع ذلك استثقالاً"(٤٢). ولكن من

العادات الكلامية كما أسلفنا ما لا يستطيع المتكلم أن يزول عنها، وبها يَعلم السّامعُ أن المتكلمَ عربيٌّ أو نبطيٌّ أو خراسانيّ أو غير ذلك، رغم الإعراب وتخيّر الألفاظ وشرف المعنى(٤٣)، لهذا قال الجاحظ: "فأمّا حروف الكلام فإنّ حكمها إذا تمكّنت في الألسنة خلاف هذا الحكم (تقليد مخارج الألفاظ وصور الحركات والسكون) ألا ترى أنّ السّندي إذا جُلب كبيراً فإنّه لا يستطيع إلّا أن يجعل الجيم زاياً ولو أقام في علياء تميم وسفلى قيس وبين عجز هوازن خمسين عاماً"(٤٤). وهذا ما نراه في إرسال عرب الحواضر صبيانَهم إلى البادية ليتشرّبوا اللغة العربية الخالصة التي لم تصبها جوائح الاختلاط والتمدّن، ولعلّ هذا ما أراده ابن خلدون في قوله: "إنّ من حصلت له ملكةٌ في صناعة فقلّ أن يجيد بعدها ملكةً في أخرى"(٤٥)، وهو يعلّل ذلك بأنّ "الملكات صفاتٌ للنّفس وألوان؛ فلا تزدحم دفعةً واحدة. ومن كان على الفطرة كان أسهل لقبول الملكات وأحسن استعداداً لحصولها"(٤٦). فاللغة في رأيه ملكة في اللسان من جملة الملكات الصّناعية تحصل بالممارسة والاعتياد والتكرّر للكلام، ويجب أن تكون هي الأولى قبل أن تسبقها إليه ملكة أخرى"(٤٧). وهو ما أكّدته الدّراسات الحديثة في علم البيولوجيا والنّفس بأنّ الملكات ترسخ في الصّغر وقبل اكتمال نموّ الدّماغ (٤٨)، ومتى اكتمل نموّه صعب على الإنسان استبدالها بملكات أخرى من جنسها، كما يصعب عليه اكتساب ملكات جديدة.

ثانيا- عدم الاختلاط:

إنّ عدم اختلاط اللغة العربية باللغات الأخرى، واعتمادها على المشافهة في مراحل التهذيب الطّويلة، جعلها تُصرَّف على وجوهٍ كثيرة، خلافاً للّغات الأخرى التي ارتبطت بالتّدوين الذي كبَّلها، إضافة إلى هجرة بعض اللغات وتقلّبها بين أظهر الأمم، ممّا أورثها بعض العادات الدّخيلة(٤٩). في ظلّ عدم الاختلاط قد أعانت الشفاهيةُ اللغةَ على بلوغ أعلى مستويات النضج، وذلك لأنّها عاشت مرحلة كبيرة من الزمن لغةً شفهية في بيئة أمّية، لم يتقن أهلها فنون التّسجيل الكتابيّ(٥٠)، وقد ساهم هذا "في تنقية أصوات العربية من كلّ ما يحدّ من انسيابها، أو يقف دون توارد مقاطعها في إيقاع موسيقيّ جذّاب"(٥١).

هذه الظاهرة عملت على تقلّب اللغة وتطورها في ظل مدٍّ وجذبٍ ساهما في استقرارها وعدم تشظّيها في شكل لغات جديدة؛ مدّ القبائل التي تفرّقت في شبه الجزيرة واستقلّت كلّ منها بقياسها وذوقها في استعمال اللغة، وجذب المناسبات الدينية والأسواق الأدبية، الذي عمل على تواصل القبائل والوصول إلى لغة مشتركة فصحى(٥٢).

أمّا إذا انفصلت اللغات عن بعضها، وتباعدت في المحالّ، فإنّها تنقطّع أواصر الصّلة، وتغيب وجوه الشّبه وملامح القربى بينها، كما حدث للغة اليمن التي قال فيها أبو عمرو بن العلاء:"ما لسانُ حِمْيَرَ وأقاصي اليمنِ بلساننا، ولا عربيتُهم بعربيتنا"(٥٣)، وهذا ما سلمت منه لغة قريش، إذ كانت العرب تُقبل عليها لتحضر الموسم كلّ عام، وتحجّ البيت، إضافة لبعدها عن بلاد العجم من جميع جهاتها، أمّا القبائل التي اختلطت بالأعاجم فلم تكن لغتهم تامّة الملكة.

ثالثا- الأسواق:

الأسواق نشاط تجاريّ ومعرِض للتربّح وتبادل السلع يقام بين القبائل العربية على مدار السنة، اشتهرت بالأمن وحرمة الدماء، لأنّ أغلبها يقام في الأشهر الحرم، ولأنّها حَرَمٌ في دين الجاهلية، فلا يجوز فيها العدوان ولا الغزو، ولا القتال، ولا الأخذ بالثأر، وهي كثيرة أهمها وأشهرها عشرون سوقاً في الجاهلية(٥٤).

وهي إضافة إلى ما سبق صلةُ رحم وقربى بين القبائل وعامل وحدة وتقريبٌ بينها في اللغة والعادات والدين، حيث تدعو طبيعة الاجتماع فيها إلى الصناعة اللسانية التي تتجلى في المفاوضة بالقول والمشاركة بالرأي، والمبادهة بالشعر والمباهاة بالفصاحة، والمفاخرة بالمحامد وشرف الأصل، ويُتوخى فيها الألفاظ العامة والأساليب الشائعة لتحقيق التواصل وإنجاحه. ومن أهم هذه الأسواق وأشهرها سوق عكاظ التي تعدّ مجمعاً أدبياً لغوياً رسمياً، يضمّ الشعراء والروّاة من القبائل كافّة، وكلٌّ منهم يحمل أدبه ولغته وألفاظه، فيساهم ذلك في تحقيق الوحدة اللغوية والتقريب بين لغات العرب ولهجاتهم، ويمنعها من أن تضمحل أو تتشعّب فتصير إلى ما انتهت إليه لغات الأمم من تباين واختلاف في مناحي الكلام كما نرى في اللغات العامية اليوم.

والواقع إنّ الشّفاهية تؤثّر في كيان اللغة بضياع تراثها وامّحاء ملامحها التاريخية، لولا عاملا الأسواق الأدبية، وحرص العرب على تسجيل مآثرهم في قصائد، يحفظها الرواة(٥٥)، فلهذين

العاملين فضلٌ في الإبقاء على خصائص اللغة الفصحى.

وفي الأخير فإنّ هذه العوامل قد جعلت اللغة العربية تتميّز في تشكيلها وأبنيتها وتراكيبها وبلاغتها، في خفتها وثرائها، في إيجازها وإعجازها. وتبقى القراءات القرآنية والأحاديث النبوية شاهداً على وجازة اللفظ وكثافة الدلالة، فقد قال ابن خلدون: "ولذلك نجد كلام العجم في مخاطباتهم أطولَ ممّا نقدّره بكلام العرب. وهذا هو معنى قوله صلى الله عليه وسلم: «أوتيتُ جوامعَ الكَلِم واختُصِر لي الكلامُ اختصاراً»"(٥٦)، وقد دعا صلى الله عليه وسلم إلى الإيجاز الذي بلغ حدّ الإعجاز في الخطابة، فقال: «إنّ طولَ الصّلاةِ وقِصَرَ الخُطبَةِ مَئِنَّةٌ مِنْ فِقهِ الرّجُل»(٥٧). وما خُطَبُه إلا نماذج من هذه اللغة المعجزة لما جمعته من صنوف المعاني وحوته من مقاصد في أوجز لفظ وأجمل سبك وأعلى بلاغة، وأفصح بيان(٥٨). ومن ضروب جوامع الكلم أيضاً، أحاديثه وأدعيته صلى الله عليه وسلم التي لا يتعدّى الواحد منها الكلمات ذوات العدد، ولكنّه يشتمل على معانٍ لا تُحصى ولا تُعدّ.

هوامش البحث ومراجعه:

(١) ينظر: الشّفاهية والكتابية، والترج أونج، ترجمة: د. حسن البنا عز الدين، مراجعة: د. محمد عصفور، عالم المعرفة، فبراير، ١٩٩٤م، ص٣٨.
(ينظر: نفسه، ص٤٣، ٢)

(٣) الاقتصاد اللغوي في صياغة المفرد، د فخر الدين قباوة، مكتبة لبنان ناشرون، بيروت لبنان، ط١، ٢٠٠١م، ص: ٢٤٠.

(٤) ينظر: الشّفاهية والكتابية، ص: ١٤

(٥) ينظر: الاقتصاد اللغوي في صياغة المفرد، ص: ٢٤١.

(٦) ينظر: الشفاهية والكتابية، ص٤٩.

(٧) ينظر: نفسه، ص٧٧.

(٨) ينظر: شرح المقدّمة الأدبية لشرح المرزوقي على ديوان الحماسة لأبي تمام، محمد الطاهر بن عاشور، تحقيق: ياسر بن حامد المطيري، مكتبة دار المنهاج للنشر والتوزيع، الرياض، ط١، ١٤٣١هـ، ص: ٣٣.

(٩) نفسه، ص: ٣٦.

(١٠) الدراسات اللغوية عند العرب حتى نهاية القرن الثالث الهجري، محمد حسين آل ياسين، مكتبة الحياة، بيروت لبنان، ط١، ١٩٨٠م، ص: ٤٥٦.

(١١) ينظر: موسيقى الشعر، إبراهيم أنيس، دار القلم، بيروت لبنان، ط٤، ١٩٧٢م، ص: ١٧.

(١٢) البيان والتبيين، أبو عثمان عمرو بن بحر الجاحظ، تحقيق درويش جويدي، المكتبة العصرية (بيروت)، لبنان، ٢٠٠٥م، ص:١/١٧٥.

(١٣) نفسه، ص: ١/١٧٦.

(١٤) البيت الأوّل مقتبس من الآية ٩٢ من آل عمران: لَن تَنَالُواْ الْبِرَّ حَتَّى تُنفِقُواْ مِمَّا تُحِبُّونَ. والبيت الثاني مقتبس من الآية ٦٠ من الأنعام: وَهُوَ الَّذِي يَتَوَفَّاكُم بِاللَّيْلِ وَيَعْلَمُ مَا جَرَحْتُم بِالنَّهَارِ.

(١٥) موسيقى الشعر، ص: ١٧٣.

(١٦) ينظر: الشفاهية والكتابية، ص٩١.

(١٧) ينظر: نفسه، ص٨٥.

(١٨) معجم المصطلحات الألسنية، (فرنسي- إنجليزي- عربي)، د مبارك حنّون، دار الفكر اللبناني، بيروت لبنان، ط١، ١٩٩٥م، ص: ٩٢.

(١٩) مقالات في اللغة والأدب، د تمام حسان، عالم الكتب، القاهرة مصر، ط١، ٢٠٠٦م، ص: ١/٢٩٢.

(٢٠) الألسنية العربية، ريمون طحّان، دار الكتاب اللبناني، بيروت لبنان، ط٢، ١٩٨١م، ص: ١٤.

(٢١) ينظر: مبادئ في اللسانيات العامّة، أندري مارتيني، ترجمة: د سعدي زبير، دار الآفاق، الجزائر، د.ط، د.ت، ص: ٢١.

(٢٢) البيان في روائع القرآن- دراسة لغوية وأسلوبية للنص القرآني- د تمام حسان، عالم الكتب، (القاهرة)، مصر، ط٢، ٢٠٠٠م، ص: ٣٢.

(٢٣) اللغة، ج. فندريس، تعريب عبد الحميد الدّواخلي ومحمد القصّاص، مكتبة الأنجلو المصرية، القاهرة مصر، د.ط، ١٩٥٠م، ص: ٣٩٤.

(٢٤) ينظر: التطور اللغوي- مظاهره وعلله وقوانينه- د رمضان عبد التواب، مكتبة الخانجي، القاهرة مصر، ط٣، ١٩٩٧م، ص: ٥٥.

(٢٥) الاقتصاد اللغوي في صياغة المفرد، ص:٣١.

(٢٦) أسس علم اللغة، ماريو باي، ترجمة د: أحمد مختار عمر، عالم الكتب، القاهرة مصر، ط٨، ١٩٩٨م، ص: ٩١.

(٢٧) شرح المفصّل، موفّق الدين بن يعيش النحوي، عالم الكتب، بيروت لبنان، د.ط، د.ت، ص: ١٠/١٢٢.

(٢٨) ينظر: الأشباه والنظائر في النحو، جلال الدين السيوطي، المكتبة العصرية، (بيروت)، لبنان، (د.ط)، ٢٠٠٦م، ص: ١/٣١٣، وظاهرة التخفيف في النحو العربي، د أحمد عفيفي، الدار المصرية اللبنانية، (القاهرة)، مصر، ط١، ١٩٩٦م، ص: ٩٣.

(٢٩) ينظر: ظاهرة التخفيف في النحو العربي، ص: ٩٦.

(٣٠) ينظر: البيان في روائع القرآن، ص: ١/ ٢٢٩ و ص:٢/٧٥.

(٣١) ينظر: اللغة العربية معناها ومبناها، د تمام حسان، الهيئة المصرية العامة للكتاب، (القاهرة)، مصر، (د.ط)، ١٩٧٩م، ص: ٢٦٣.

(٣٢) المقتضَب، أبو العباس محمد بن يزيد المبرّد، تحقيق: محمد عبد الخالق عضيمة، مطابع الأهرام التجارية، القاهرة مصر، ١٩٩٤م، ص: ٢٣٣/١.

(٣٣) نفسه، ص: ٣٨٣/١.

(٣٤) ينظر: ظاهرة التّخفيف في النحو العربي ، ص: ٨٧.

(٣٥) المقدّمة، عبد الرحمن بن خلدون، دار الفكر، (بيروت)، لبنان، ط١، ٢٠٠٤م، ص: ٦٣٠.

(٣٦) شرح المفصّل، ص: ١١٣/١.

(٣٧) دراسات في علوم القرآن، د محمد بكر إسماعيل، دار المنار، القاهرة مصر، ط٢، ١٩٩٩م، ص: ٧٢.

(٣٨) ينظر: دراسات في علوم القرآن، ص: ٧٥.

(٣٩) ينظر: نفسه ، ص: ١١٢.

(٤٠) ينظر: النّشر في القراءات العشر، الإمام ابن الجزري، تقديم وتعليق: جمال الدّين محمد شرف، دار الصحابة للتراث بطنطا، مصر، ط١، ٢٠٠٢م، ص:٣٦/١.

(٤١) البيان والتبيين، أبو عثمان عمرو بن بحر الجاحظ، تحقيق: درويش جويدي، المكتبة العصرية، بيروت لبنان، د.ط، ٢٠٠٥م، ص:٥٣/١.

(٤٢) البيان والتبيين ، ص: ٣٣/١.

(٤٣) ينظر: نفسه، ص: ٥٢/١.

(٤٤) نفسه ، ص: ٥٣/١.

(٤٥) المقدّمة، ص: ٤٢٢.

(٤٦) نفسه، ص: ٤٢٢.

(٤٧) ينظر، نفسه، ص: ٦١٩.

(٤٨) ينظر: محاضرات في فقه اللغة، د محمد الحباس، دار غبريني للطباعة والنشر والتوزيع، الجزائر، ط١، ٢٠٠٦م، ص: ٤٢.

(٤٩) ينظر تاريخ آداب العرب، مصطفى صادق الرافعي، المكتبة العصرية صيدا، (بيروت)، لبنان، (د.ط)، ٢٠٠٥م، ص: ٧٠/١.

(١٩) ينظر: في التطور اللغوي، عبد الصبور شاهين، مؤسسة الرّسالة، بيروت لبنان، ط٢، ١٩٨٥م، ص: ٤٦.

(٥١) ظواهر التّشكيل الصّوتي عند النحاة واللغويين العربحتى نهاية القرن الثالث الهجري، رسالة تقدّم بها الباحث المهدي بوروبة إلى قسم اللغة العربية وآدابها من كلية الآداب بجامعة تلمسان لنيل درجة الدكتوراه عام ٢٠٠٢م.

(٥٢) ينظر: في التطور اللغوي، ص: ٤٦. ومباحث لغوية في ضوء الفكر اللساني الحديث، د عبد الجليل مرتاض، منشورات ثالة، الأبيار الجزائر، ٢٠٠٣م، ص: ١٢. ١٣.

(٥٣) طبقات فحول الشعراء، محمد بن سلّام الجمحي، قرأه وشرحه: محمود محمد شاكر، نشر دار المدني بجدّة، د ط، د ت، ص: ١١/١.

(٥٤) أسواق العرب في الجاهلية والإسلام، سعيد الأفغاني، دار الفكر للطباعة والنشر والتوزيع، بيروت، ط٣، ١٩٧٤م، ص: ٢٣٢ وما بعدها.

(٥٥) ينظر: في التطور اللغوي ، ص: ٤٦.

(٥٦) المقدّمة، ص: ٦٢١.

(٥٧) النهاية في غريب الحديث والأثر، ابن الأثير، تحقيق د. محمود الطناحي، مطبعة عيسى البابي الحلبي، القاهرة، ١٩٦٣م، ص: ٢٩٠/٤.

(٥٨) ينظر: كيف تغدو فصيحاً عفّ اللسان، محمد حسان الطيان، مجلة الوعي الإسلامي، وزارة الأوقاف والشؤون الإسلامية، الكويت، ط١، الإصدار ٣٩، ٢٠١٢م، ص: ٢٨. ٢٩.